التأثير التربوي لوسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية

عـزة عجـان
أستاذ بمعهد علوم الإعلام والإتصال

موضوع التأثير التربوي لوسائل الاعلام والدعايـة الجماهيريـة موضوع قليل تنـاولـه من قبل الباحثين والمهتمين بقضايا الاعلام في مجتمعنا . وفهم هذا الموضوع فهماً صحيحاً يسهل علينا معرفـة الوظيفة الحقيقية لوسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية وموقع الإنسـان منهـا أيـا كان مجتمعـه واينما كان وجود هذه الوسائل سواء على المستوى الوطني أو المستوى العالمي .

من أجل هذا الفهم الموضوعي فانه يجب علينا شرح منطلقين أساسيين هما :

1) جوهر وظيفة وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية وموقعها من التربية .

2) جوهر التربية المستهدفة عبر هذه الوسائل وأهدافها .

ولكي نصل الى النتائج المرجوة فـانـه من الضروري أولا أن نوضح مصطلح «وسـائل الاعلام» والدعايـة الجمـاهيريـة» حتى نزيل تلـك البلبلـة النـاتجـة عن كثرة المصطلحـات المستعملـة دونمـا تدقيق .

مسألة المصطلح : في مجمل الكتـابـات التي تتحـدث عن الاعلام وعن السيـاسـة والاقتصـاد وفي الأدبيات الأخرى التي تتناول الفنون والعلوم أحيانا يتكرر الحـديث عن أهميـة «وسـائل الاعلام» ومن الملاحظ أن هذه الكتابات على تنوعها لا تستعمل المصطلح في صيغتـه الـدقيقـة . فمرة نقرأ «وسائل الاعلام العامة» ومرة نقرأ «وسائل الاتصال الجماهيري» ونقرأ «وسـائل الاعلام» دونمـا أيـة اضافة محددة .

وفي مواضع متخصصة نقرأ اضافات تحدد الاختصـاص مثل «وسـائل الاعلام الآلي» و«وسـائل الاعلام التربوي» فأي من هـذه المصطلحـات يعكس الوظيفـة الحقيقيـة لهـذه الوسـائل ويعكس جوهرها في المرحلة التاريخية المعاصرة ؟

في الاعلام قانون نافذ فعال يمارس يوميا دون أن يستقطب انتباهنا أو يشدنا بالقدر الكافي الى ما يختفي وراءه من حقائق تمس حياتنا كل يوم وتؤثر فيها بدون ارادة منا وبارادة منها . هذا القانون الذي يعتبر القانون الأول في الاعلام يصاغ كما يلي :

«ان حاجة الناس الى المعلومات عما يجري في هذا العالم تجعل هؤلاء الناس في حالة تبعية لأولئك الذين ينتجون وينشرون الأخبار والمعلومات» .

نفهم من هذا أن هناك أناسا معينين ينتجون الأخبار والمعلومات أي «الاعلام» ثم ينشرونه عبر وسائل متعددة في الصحافة والاذاعة والتلفزة والفيلم والمسرح وغيرها ، أي الوسائل القادرة على نقل الأخبار والمعلومات الى أوسع فئات الجماهير في آن واحد . الا أنه يجب أن ندرك هنا حقيقة موضوعية رئيسية . وهي أن الأخبار والمعلومات قد تكون صادقة ، وقد تكون قريبة من الصدق ، وقد تكون مزيفة كاذبة . لماذا يحدث ذلك ؟ .

من المسلم به أن الذين ينتجون الأخبار والمعلومات وينشرونها لا يفعلون ذلك لمجرد ارضاء رغبة أو هواية . انما يفعلون ذلك بقصد واستهداف . فهم يسعون بذلك الى تثبيت وجودهم الاجتماعي وفق المكانة الاجتماعية التي حددوها لأنفسهم ومن خلال موقفهم من الفئات الاجتماعية الأخرى . لهذا فان الاعلام ، خبرا كان أو معلومات انما يعكس قبل كل شيء فكرا وآراء ومصالح . وهو عبر انتشاره عن طريق تلك الوسائل يستهدف التأثير على أفكار الناس وعلى سلوكهم في مجال الحياة العامة وفي المجال الايديولوجي . ويستهدف أيضا تحقيق المصالح المادية عبر عملية اقتناص الأموال بواسطة (الاعلانات المختلفة) . معنى هذا أنه تتمركز في هذه الوسائل المصالح الايديولوجية والمادية تبعا للموضوعية التي تقول : من الذي يسيطر على هذه الوسائل ؟ ومن يمتلك هذه الصحيفة أو تلك المحطة الاذاعية والتلفزة ؟

مما شرحت يتضح لنا أن المصطلحات السابقة لوسائل الاعلام هي مصطلحات ناقصة وغير دقيقة وأن المصطلح الوصفي والجوهري لهذه الوسائل هو :

«وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية» .

جوهر وظيفة وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية : أسمح لنفسي هنا أن أختصر هذا المصطلح في رموز حسب الحرف الأول من كل كلمة أي (و.أ.د.ج) وذلك تسهيلا لحركة النص وتجنبا للتكرار الذي يضعف قابلية القراءة .

ان (و.أ.د.ج) تتصل في جوهرها اتصالا وثيقا بالحياة والمجتمع أكثر من أية وسائل أخرى ولا يستطيع أي مجتمع من المجتمعات الاستغاء عنها . بل لا يمكن تصور وجود المجتمعات بدونها . هذا ما يدركه تماما أولئك الذين يسيطرون على هذه الوسائل . يدركون أن المجتمعات في واقع حاجة اليها أي في وضع تبعية لها . وما ينطبق على المجتمعات ينطبق بالبديهة على الأفراد . وخلف هذا الادراك تكمن مسألة التربية ونوعيتها التي يجب أن تحققها (و.أ.د.ج) والتي تمثل قوة غير عادية في

التأثير على الرأي العام ومن خلاله على سلوك الناس في المجتمع المعني والتي تكون سلاحا غاية في الحدة والفعالية في معركة المباراة السياسية التي هي دائما موضوع السلطة.في الدولة . لذلك فان (و.أ.د.ج) هي قبل كل شيء مؤسسات سياسية بكل ما في هذه الكلمة من معنى . فهي تشارك في تكوين الايديولوجية السياسية بصورة أساسية ثم تحولها . ولهذا يقال عنها أيضا أنها وسائل التأثير الأيديولوجي . ولا يجوز هنا أن ننسى هذه الحقيقة وهي أن الايديويوجية السياسية تتجسد بصورة مباشرة في الآراء الحقيقية والتشريعات وفي الحقائق الأخلاقية وكذلك في العلوم الاجتماعية ولا سيا الفلسفة وكذلك في الفن . هذا هو جوهر وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية وهذا هو جوهر وظيفتها .

موقع وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية من التربية :

مازالت مسألة التأثير التربوي لهذه الوسائل موضوع جدل واختلاف في الرأي فبعض المنظرين في الغرب يقفون موقف شك من مسألة رسالة (و.ا.د.ج) في التربية . ذلك أنهم لا يرون لها قيما ايجابية في مجال التربية وهم ليسوا مقتنعين بهذه الرسالة . على أن هناك آراء غالبة عامة توضح أن هذه الوسائل هي وسيط تربوي وليست مؤسسات تربوية كما أنها ليست مصدرا خاصا للتأثير التربوي (التكوين) .

وعلى العكس من هذا هناك تصور عند الباحثين البيداغوجيين بأن على التربية بفروعها المنفردة أن توسع مجالات دراستها في مسألة التأثير التربوي الى المجالات الأخرى من النشاط التربوي وقبل كل شيء مسألة التأثير التربوي في العمل والسياسة والادارة والنشاطات الثقافية والعسكرية والرياضية وبصورة خاصة في النشاط الصحافي .

ومع هذه الآراء المختلفة هناك اجماع يعترف بالتأثير التربوي (و.ا.د.ج) ويقر بفاعلية هذا التأثير رغم أنه لا يوجد تكرار في الاتصال المباشر بين المربي والمتلقي ورغم أن الاتصال يكون باتجاه واحد .

ان ما يميز هذه الوسائل عن المؤسسات التربوية أنه ليس أمامها قارىء محدد أو مشاهد محدد أو مستمع محدد مثلما في المؤسسات التربوية . وانما أمامها جماهير واسعة من الناس غير معروفين ومن ثقافة ووعي مختلفين . وهي قادرة على أن تصل الى الجميع .

إن الاختلاف في فهم الرسالة التربوية بين العديد من الباحثين يعود حسب ما أرا الى الاختلاف في فهم المكانة النوعية لوسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية نفسها في عملية التربية الثقافية . فالامكانيات التربوية لهذه الوسائل محددة برسالتها الأساسية .

فالصحافة كشكل خاص من أشكال البناء الفوقي الاجتماعي تدرس قبل كل شيء تلك المجالات من النشاط التروبي والتثقيفي الذي يتوجه مباشرة الى الحقائق المتكونة في المرحلة

الراهنة أو الجارية وليس الى الحقائق الموسوعية كما في المؤسسات التربوية . ولهذا فان الدور المعرفي والتربوي ليس وظيفة خاصة للصحافة وانما تتقاسم هذه الوظيفة مع بقية المؤسسات الاجتماعية للبناء الفوقي . وما يميزها هنا هو أنها في تأثيرها التربوي أسرع استعدادا وأسرع عملا من الاشكال التربوية والتثقيفية الكلاسيكية ، لا سيما في عصر يعصف بالثورة العلمية التكنولوجية .

يمكن اذن فهم (و.ا.د.ج) على أنها وسيط ومصدر في آن واحد للقيم التربوية . فهي الى جانب تأثيرها الخاص في التربية فانها تكون أيضا منبرا للتأثير التربوي للمؤسسات الأخرى والمنظمات المتعددة للبناء الفوقي والتي تتحقق أما بالعمل المشترك مباشرة مثل مساعدة السلطة في التربية الحزبية أو التربية المدنية والاشهار التربوي أو بصورة غير مباشرة في مجالات التاريخ والأدب والفن الخ ...

وهكذا نكون قد شرحنا المنطلق الأول لموضوعنا ، لننتقل الى شرح المنطق الثاني .

جوهر التربية المستهدفة عبر (و.ا.د.ج) وأهدافها : أو ضحنا في المنطلق الأول أن محتوى الاخبار والمعلومات التي تقدم لنا عبر (و.ا.د.ج) لا يجب أن يكون دائما صادقا وبالتالي لا يجب أن يكون مقبولا . لذلك فان العلاقة بين هذه الوسائل والمجتمع هي علاقة معقدة وذات اتجاهين . اتجاه قبول واتجاه رفض ، وفي كلا الحالتين يكون الأفراد والمجتمع في وضع التبعية . تبعية التزام ، في حالة القبول . وتبعية بدون ارادة في حالة الرفض . وكلما اشتدت الحاجة الى الأخبار والمعلومات كلما كانت العلاقة أكثر تعقيدا وقد تصل الى حد القهر .

أول ما تسعى إليه (و.ا.د.ج) في كل الأنظمة على الاطلاق هو خلق جو عام اجتماعي وروحي وتكوين رأي عام يكون له دوره في تكوين الوجه السياسي للناس وفق أيديولوجية البناء الفوقي للأنظمة . فمن أجل التأثير التربوي فانه لابد من التعبير عن الآراء والمواقف في توجه يهدف الى تكوين تسلسل من القيم والى التأثير على التوجه التقويمي ونظام التقويم لدى المستقبل . وفي هذا المسار التقويمي يكون أمام (و.ا.د.ج) مجالات واسعة للالتقاط وامكانيات كثيرة للتأثير على المستقبل ، اذ يرى الكثير من الباحثين أن هذه الوسائل تمتلك مقدمات ضخمة لكي تعمل على تربية أفراد المجتمع ثم تكوين موقف ورأي من خلال هذه التربية . الا أن المشكلة المطروحة هنا هي : أي نظام من القيم وأي نظام من التقويم تسعى هذه الوسائل الى تثبيته ؟ هل هو نظام يعمل على تطوير شخصية الانسان في روح القيم الاجتماعية الحقيقية ويعمل على توسيع ثقافته العامة ، وتعميق اهتماماته واختصاصه بصورة أكثر تنظيما وتماسكا ؟

ان فعالية التأثير تتوقف دائما على العلاقة ما بين توجهات المنظمة السياسية والعلاقة بين محتوى وشكل الاعلام وموقف المستقبل منه في الحالة المعنية . موقف قبول أم موقف رفض ؟ فاذا كانت (و.ا.د.ج) تلتمس السبل الراقية التي تؤكد احترام انسانية الفرد وتقدير حسه الاجتماعي

تقديراً واعياً ، فانها تجد القبول والتعاطف . أما اذا كانت تستخف بعقلية الجماهير وتلجأ الى التبريرات الساذجة وتجاهل الوقائع الحقيقية وتكثيف الأضواء حول أحداث غير مقبولة جماهيريا فان هذا يؤدي الى فقدان الثقة بهذه الوسائل والبحث عن غيرها ، وفي هذا يكمن الخطر الأكبر .

على أنه يجب التنبيه في هذا المجال الى أن المجتمعات التي يوجهها حزب حاكم واحد تكون فيه (و.أ.د.ج) جزءا لا يتجزأ من النظام التربوي الكامل . وهذا المركب الذي يتميز ببنية داخلية معقدة له علاقات أخرى متعددة ومتسلسلة من النظام الكامل الى النظام الفرعي . ولذلك فان العمل العميق لكل نظام مفرد (فرعي) خارج التعليم والتربية المدرسية يتوقف على معرفة وفهم واحترام امكانيات وثغرات كل حلقة من حلقات هذا النظام . أي احترام خصائص كل وسيلة من وسائل النظام الفرعي واستعمال أفضليتها .

من مجمل ما شرحت في هذا المنطلق يتضح لنا أن التربية المستهدفة عبر (و.ا.د.ج) ليست تربية مدرسية وانما هي بالدرجة الأولى تربية سياسية وايديولوجية .

الخصائص الفردية لوسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية في التأثير التربوي :

لكل وسيلة من هذه الوسائل خصائصها التي تميزها عن الوسيلة الثانية . ولكل وسيلة أيضا موقع معين لدى كل فرد من أفراد المجتمع . أي أن للفرد في هذا المجال حقاً في اختيار الوسيلة التي يرتاح إليها على الأقل والتي تساعده وفق وقته المحدد ، على ما يهتم به من معلومات واخبار . ولهذا فان اختيار الفرد (المستقبل) وقبوله لنوع محدد من المعلومات ووسيلة محددة من (و.ا.د.ج) يخضع الى العديد من العوامل الذاتية والموضوعية .

فالصحافة الدورية : تمكن القارىء من اختيار الوقت الذي يساعده على المطالعة . ثم أن ما يميز المعلومات المكتوبة في الصحف والمجلات هو امكانية حفظ النصوص والمعلومات المصورة الى وقت طويل وامكانية التمييز بسهولة فيا يتعلق بالمحتوى والشكل وكذلك فيا يتعلق بالمجالات المنفردة الاجتماعية أو الاختصاصية أو المسلية وغيرها من أنواع النشر .

والاعلام في الصحافة الدورية يمكن أن يكون معلومات واسعة وتعليمات حول الأحداث من الأيام الماضية مدعمة (بالمصورات والجداول) أي أن الاعلام يرتكز على الاستمرارية من عدد الى آخر وعلى صياغة تجري بتفكير وأناة مع سرد منظم ومتدرج . وهذا يعني أن لا حاجة الى تكثيف المعلومات وحشد الحقائق دون شرح أو تعليق .

اذن فالصحافة المكتوبة تمكن القارىء من الحد الأقصى من المعلومات وفي الوقت الملائم له . كذلك تمكنه من أن يفكر في هذه المعلومات وأن يستلهم منها ما هو في حاجة إليه .

غير أن الصحف والمجلات تكون أقل فعالية من حيث سرعة نقل الحدث وآنية حدوثه .

وهذه الفعالية تتميز بها الاذاعة والتلفزة وهما الأقدر دائما في هذا المجال .

الاذاعة والتلفزة : أكثر جاهزية وقدرة على بث الاعلام الجاري والمباشر حول الأحداث . وهما يؤثران عقلانيا ولكن بحشوة عاطفية قوية . ولهذا فان الأفضلية الرئيسية للاذاعة والتلفزة هي في امكانية الارسال الحي . وحتى فيما يتعلق بالارسال المسجل فانه يثير انطباعا حسياً وكأنه ارسال آني . لأن الارسال والاستقبال يجري في آن واحد . وبمقارنة مجملة لهذه الوسائل نتوصل الى الخصائص التالية :

الاذاعة : وهي الأكثر جاهزية في تقديم المعلومات وتكمن قوتها بالتقديم السريع وتعريف المستمع بالأحداث عبر شهود العيان وتعليق المعلقين . وهذا ما لا تستطيع التلفزة والصحافة أن تجاريها فيه . واضافة الى هذا فان للاذاعة امكانيات متعددة فيما تقدمه من برامج تبعا لفئات المستمعين . أما ما تفتقده الاذاعة فهو المادية الملموسة في الصحافة المكتوبة ، حراسة البصر في التلفزة .

التلفزة : ليست في مستوى الاذاعة في سرعة الارسال الا أنها تعوض ذلك بنوعية الصورة وجماهيرية الاستقبال .

الصحافة المكتوبة : تبرز الصحافة المكتوبة بملموسيتها ومجالاتها المختلفة وهي بواسطة الكلمة المكتوبة والصورة تتناول مواضيع شاملة أو مواضيع جزئية .

ان فهم خصائص كل وسيلة من هذه الوسائل في أداء الرسالة الاعلامية له أهميته الكبيرة في التأثير التربوي الايديولوجي . ونجاح التأثير التربوي لا يتوقف فقط على معرفة الوسيلة التربوية وامكانيتها وثغراتها في علاقتها مع المستقبل ولكن يتوقف أيضا على معرفة ميزة هذه الوسيلة وعدم ميزتها ، بالنسبة الى وسائل التربية الأخرى ، في الاختيار الصحيح للمواضيع المكملة للدور التربوي في اطار النظام التربوي الكامل . أي لا يمكن الحديث عن الدور التربوي لأية وسيلة من هذه الوسائل بمعزل عن الوسائل الأخرى . والتصرف العقلاني يتطلب معرفة الفروق في استعمال (و.ا.د.ج) فالاعلام الجيد مثلا هو الذي يبدأ بالأخبار السياسية عبر الاذاعة ثم تفصل هذه الأخبار في الصحف المسائية ويجري تثبيتها في ذاكرة المستقبل في الساعات المسائية عبر التلفزة وفي الصباح التالي تكون التعليقات .

وهكذا نرى أن معنى العمل المشترك لوسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية في التأثير التربوي انما يكمن في تكوين نظام تربوي يستطيع أن يصل بقدر الامكان الى جميع مجالات الوعي والفكر والاحساس وسلوك الأفراد والجماعات . ورغم ذلك فانه يجب أن ندرك أن التربية لا تعني أبدا التوجه الواحد . فشخصية الإنسان ليست فقط موضوع التأثير التربوي الفكري من اتجاه واحد بل أن الإنسان نفسه له ذاتيته في هذا التأثير . فهو يعمل بنفسه أيضا على تكوينه التربوي عبر قناعته وتقويمه لأسلوب الحياة . لذلك فانه يعمل بنفسه على تثقيف نفسه باختيار

وسيلة الاعلام التي تلبي حاجته وينتقد أو يرفض الوسائل الأخرى التي لا تلبي هذه الحاجة . لذلك فان التأثير التربوي (و.ا.د.ج) يجب أن يشكل عملية واحدة موحدة في سبيل الهدف المنشود . ولابد هنا من الانسجام الداخلي لكل وسيلة على انفراد والانسجام الكلي بين الجميع .

الخلاصة :

وسائل الاعلام والدعاية الجماهيرية ليست مؤسسات تعليمية وانما هي مؤسسات سياسية . وان الوظيفة التربوية التي تقوم بها هذه الوسائل هي وظيفة متميزة ترتكز على التربية السياسية والايديولوجية وتسعى من خلال ذلك الى المشاركة في تكوين رأي عام يتأثر بنظام القيم الحقوقية والاخلاقية والجمالية السائد في المجتمع والمعزز بالبناء الفوقي لهذا المجتمع .

أما التربية التعليمية فليست وظيفة أساسية وانما هي دور تقوم به هذه الوسائل بين الحين والآخر .